العلوم

بحث فى تاريخ الإنسان

يقلم نعيم على راغب
دبلوم عال فى الجغرافيا

إذا أردنا الكتابة أو البحث فى تطور الانسان على ممر الدهور والأيام ، فانما نعني فى الحقيقة تاريخ الانسان ، تاريخ حياته وجهاده وكيف . . ومتى . . ومن أين أتى بشكله الطبيعى المألوف الذى نراه به اليوم . وكيف تكونت عنده القوى العقلية والقدرة على التكلم والتفاهم .

من الواضح الجلى أننا إذا حاولنا الكتابة فى هذه الحادثات التاريخية القديمة ، يجب علينا أن نوجه أبحاثنا وننظر بعيداً الى عصر قديم جداً من العصور ، يقع قبل التواريخ المدونة فى الكتب بمراحل كبيرة جداً . ونجد لزاماً علينا فى هذه الحالة أن نقص عليك أطيب القصص عن عصر لم يوجد به رأى يفكر أو يد تسطر لنا ثمرات هذا التفكير .

ولقد خيل للعلماء أجمع استحالة تتبعهم وتفهمهم لما حدث فى تلك الأحقاب السحيقة ، ثم تسطير تلك الحوادث التى حدثت منذ آلاف السنين ، لو لم تأت المصادفات ويساعد الحظ الحسن على كشف أستار الماضى الكثيفة . فانه فى حوالى سنة ١٨٢٥ قامت بعثة أثرية دنمركية بالبحث عما قد يكون مندثراً فى أراضى بلادها من أسلحة أو حلى أو آنية قديمة ، ثم وضعت كل ماوجد فى متحف كوبنهاجن .

وفى سنة ١٨٣٠ حينما ازدادت كمية المحفوظ به فكر مدير قسم الآثار س . ج . توسون C. J. Thomsen فى تقسيم المحفوظات الى أقسام ترتب حسب نوع المعدن المصنوعة منه . إلا أنه فى ذلك الوقت أتته فكرة طارئة ، كانت ذات أثر بين فى سير التاريخ الانسانى ، وذلك أنه ساءل نفسه عما إذا كان من المحتمل أن تكون تلك المحفوظات عنده فى المتحف كل منها يمثل عصراً خاصاً من عصور الانسانية ، وجاءت الحوادث بعد ذلك لتحقق صدق حدسه الذى خمنه ، فقد وجدت أشياء أخرى بطريق المصادفة لفريق من عمال البناء عند حفرهم آبار منازل كلها من مرافق الانسان الذى عاش فى العصور السالفة ، وكان أقربها لسطح الأرض الحديدية والبرونزية فالحجرية .

فأخذ علماء الدنمرك حينذاك يعرفون أن الأرض نفسها سجل صامت ثابت يحفظ تاريخاً صحيحاً لأعمال وحياة الانسان فى العصور السالفة ، ووجدوا ذلك صحيحاً فى كل جهة من جهات بلادهم : فى المقابر القديمة ، فى الآبار وفى شواطىء الأنهار مما يملى عليهم التاريخ الصحيح للانسان القديم .

... لأن الفضيلة الكاملة التى وضعتها فى عينك لم تصنع إلا من أجلك» وقد ولدت عنده هذه الحكمة حكمة دينية أبداها فى بعض مقاطيع صغيرة . حيث أبدى أن الوحى الألهى ليس بواحد ولا بثابت ممتنع عن التغير . ولكنه يتنوع ويتقلب ويتقدم كالأنسانية نفسها . وقد أدرك ليسنغ الذروة العالية فى روايته (الحكيم ناتان) اذ أعلن أن الحكيم الحقيق هو الذى يتروض على الفضيلة ويخضع لأحكام العناية الالهية الخالدة .

لقد فهم رجال الأدب بعض جوانب هذا الرجل العظيم ، ولن تظهر عظمته واضحة إلا بعد أن يرجعوا الى البذور الفنية التى نثرها فى طريقه ، وهل كان (جوته) و (هير دار) إلا أول فنن من هذه الشجرة ، أورق وأزهر وأثمر ، ثم أتى أكله فكان نعم الأكل[1] . ؟

بيروت — مندور الفنراوى

(١) آثرنا أن ننقل صفحة معربة من كتاب (اللاوكون) وفيها تحليل دقيق لبعض الصور الفنية التى كان لها تأثيرها البليغ فى تحوير الفن وإبداع صوره الجديدة فى العهد القديم ، وفيها يطلع القارىء على سمو نظر هذا الناقد .

من كل تلك الأشياء وصل تومسن Thomseu الى نتيجة نهائية ، هى أن تاريخ الانسان القديم مقسم الى ثلاثة عصور : الحجرى والبرنزى فالحديدى ، وبذا كانت الدنمرك أحدث الجهات فى التكوين جيولوجيا ، هى أول مكان بحث التاريخ السحيق للانسان على هذا النمط العلمى الجديد .

حول العلماء الفرنسيون بعد ذلك طريق كتابتهم لتاريخ الانسان وجاروا الدنمركيين فى طريقتهم ، ووجدوا مادة بحثهم الجديد فى كهوف مقاطعة Dordogne وبدأ ادوارد لاريت F. Larett ومعاونوه البحث فيها حوالى عام ١٨٦٠ فوجد أن معظمها كان مستعملاً قبل ذلك كمساكن أو مقابر فى كل عصور التاريخ القديم ، وكان من عدم اعتناء السكان الأقدمين بالنظافة وترك كهوفهم مملوءة بالبقايا والأدوات حظ حسن للتاريخ ، وكان من تساقط المياه الملحية من سقوف الكهوف خير معوان وخير عامل على حفظ تلك البقايا الانسانية بعيدة عن الضياع أو التلف ، وارتفع قاع الكهوف بالعوامل الطبيعية والجيولوجية ، فحفظت الأرض بين ثناياها على ارتفاع ينيف على الثلاثين قدماً آثاراً عظيمة الشأن للحياة الانسانية من مدة طويلة من الزمن .

ولم يطل الزمن بعد ذلك حتى عرف الفرنسيون أن كهوف بلادهم تحفظ تاريخ الانسان لمدة أقدم بكثير مما تحفظه مقابر اسكندیناوه أو قدماء المصريين . ولم تكن العصور الانسانية الثلاثة المعروفة لهم سوى عصور حديثة جداً إذا ما قيست بما تنم عليه آثار كهوف فرنسا ، ومن بينها الهياكل العظيمة المتحجرة للحيوانات التى كانت تعيش فى تلك العصور ، كغزال الرنة ، والضبع ودب الكهوف . ولقد قسم اللورد ايڤبرى Lord Avebury العصر الحجرى إلى قسمين : أسمى أحدهما العصر الحجرى الحديث Neoliths القريب من العصر البرنزى وهو ما وجدت آثاره فى الدنمرك ، وأسمى الآخر العصر الحجرى القديم Palaeoliths .

وكلما ازداد الفرنسيون تعمقاً فى حفرياتهم ازدادوا يقيناً بصحة ترتيب تلك العصور المختلفة وبتغيرات عديدة قد حدثت للمناخ وقتذاك ، وعرفوا أنه لم يكن هناك عصر حجرى قديم واحد كما ظن السير ايڤبرى بل جملة عصور متتابعة متناهية فى القدم يمتاز كل عصر منها بميزات مختلفة ، أمكن انتزاعها من الآثار التى وجدوها . وزاد يقينهم فى هذه النظرية تكرار وتماثل ترتيب الطبقات فى كل الكهوف التى بحثوها . وقد وجد علماء الانجليز والألمان والطليان والاسبان بدورهم نفس الظواهر والترتيب الذى وجد فى كهوف فرنسا

وهكذا نرى أن الكهوف قد أمدتنا بالمعلومات والحقائق الخاصة بتاريخ الانسان القديم ، وأمكننا تسطير تاريخ دقيق لا عن المدة التى كشفت عنها حفائر الدنمرك فقط ، بل عن مدة تتناهى فى القدم عن تاريخ قدماء المصريين أو تاريخ بابل القديم . وإنك لتدهش حقاً إذ تعرف أن تلك الحفريات قد كشفت لنا عن ظاهرة ليست غريبة عن عصرنا ، وهى مسألة الزى ، أو « المودة » fashion فقد ثبت منها أن مجرد وضع زى خاص للبس أو زينة فى بلد فى تلك العصور كان كافياً لانتشاره فى العالم القديم أجمع ، ولذلك ترى أن أجدادك وأجدادنا الأقدمين كانوا مثلنا عبيداً للزى المتفشى فى العصر . ولو أن زيهم كان أثبت قدماً وأطول بقاء من زينا الذى يتغير سريعاً بتغير الفصول والمناسبات

لم نر الآن إلى أى حد تعمق البحث فى تاريخ الكهوف القديم .

من الشكل رقم «١» يرى القارئ قطاعاً رأسياً فى كهف مثلى كانت فيه الطبقات والعصور التى وصل العلماء إلى الكشف عنها . ومنه يمكنه أن يلاحظ أن العصور الثلاثة المعروفة (الحديدى والبرونزى والحجرى) تقع فى أحدث جهات الكهف كشفاً ، ومن بعدها عصر سماه العلماء Azilian (لأن الحفريات التى دلت على وجوده عملت بالقرب من قرية Mas d, Azile فى فرنسا) يجىء بعده عصر سموه Magdalenian (نسبة إلى كهف La Madeleine فى مقاطعة الدردون) يتبعه عصر سمى Solturean (نسبة إلى جهة Solutré بالقرب من ماسون بفرنسا) فعصر أطلق عليه إسم Aurignacian (نسبة إلى قرية Aurignac فى أعلى الجارون) وآخر هذه العصور عصر أطلق عليه إسم Mousterian نسبة إلى الكهف Le Maustier فى مقاطعة داردونى Dardogne

وليس هناك أدنى شك فى صحة ترتيب العصور السالفة الذكر ، لأن الابحاث التى قام بها العلماء بعد ذلك لم تكشف لنا إلا عن تتابع صورة طبق الأصل لما قد بيناه فى هذا المقال . إلا أننا نقف لحظة

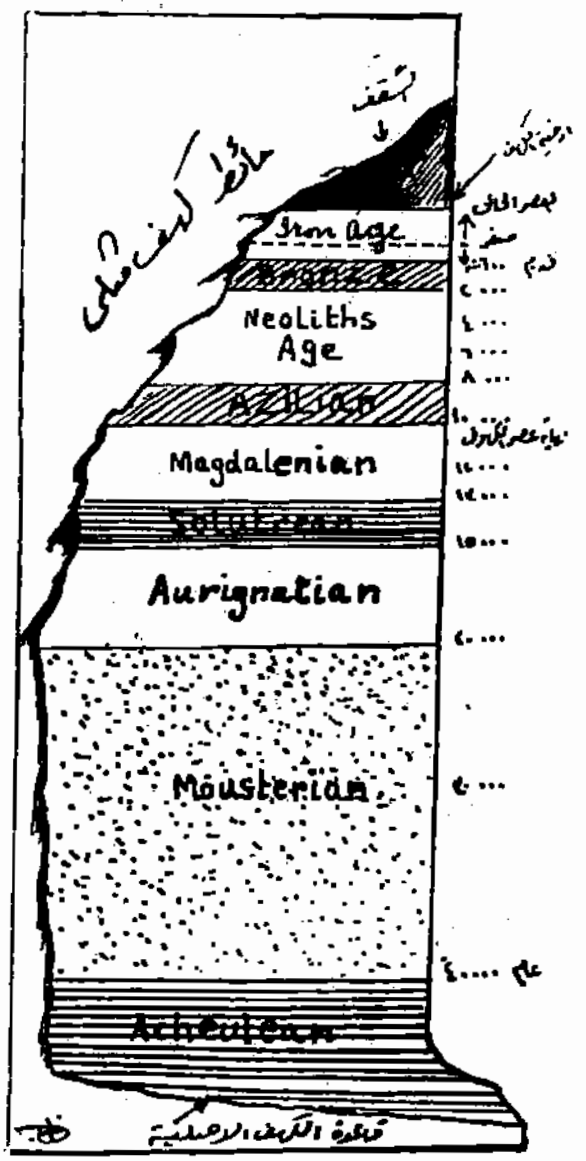

شكل (١) رسم تخطيطى لكهف مثلى يظهر عليه تركيب وتتابع الطبقات الجيولوجية

ونسائل أنفسنا ما هى فترة كل عصر من تلك العصور ؟ ومتى بدأ كل عصر منها ؟ . . ومتى انتهى كل منها ؟ .

إن السنين المذكورة فى شكلنا رقم « ١ » ما هى إلا عدد تقديرى تقريبى غير ثابت تمام الثبوت ، وربما كشف لنا العلماء حديثا ما يدفعنا إلى تغيير فى هاته الأرقام . لكننا مع ذلك نعلم أن فترة الكهوف قد انتهت بانتهاء عصر الجليد . ولقد استطاع علماء السويد وعلى الأخص البارون دى جير Baron de Geer أن يضعوا لنا تقديرا معقولا انتزعوه من آثار عصر الجليد وعرفنا منهم أن عصر الجليد قد بدأ فى السويد من مدة ١٢٠٠٠ سنة مضت تقريبا . ونحن إذا قدرنا أن حياة الانسان فى الكهوف قد انتهت من مدة ١٠٠٠٠ سنة أو ٨٠٠٠ قبل الميلاد لأمكننا أن نقرر لأقدم عصر من عصور الكهوف تقديرا غير مبالغ فيه وهو ٤٢٠٠٠ سنة

ولكى تعلم أيها القارىء أن أقدم عصر من عصور الكهوف هو أهم عصر فى هذه العصور جميعا ، يكفى أن نخبرك أنه بين طبقات الأرض فى هذا العصر قد وجدت بقايا عظام متحجرة لعنصر من عناصر المخلوقات يختلف اختلافا عظيما جدا يبعده عن الصورة التى كان عليها أقدم الأجناس البشرية المعروفة . هذا النوع أو الجنس يعرف باسم انسان النياندرتال Neanderthal Man ويمتاز هذا النوع بفرطحة الجمجمة وبروز عظام محاجر العين . كان رجاله ونساؤه ذوى قامات محدودبة يعتمدون كما تعتمد القردة على أيديهم فى المشى .

وقد بدأ هذا النوع من أنواع الانسان القديم يظهر واضحا جليا بآثاره ومخلفاته فى أواخر أقدم عصر من العصور التى ذكرناها Mousterian موستريان

ومن الآثار والمخلفات التى وجدت فى الكهوف القديمة فى جميع أنحاء العالم أمكن تتبع حياة الانسان لمدة تنيف عن ٤٠٠٠٠ سنة فى وقت كانت فيه أوروبا مسكونة بعنصر من العناصر الانسانية يختلف اختلافا بينا عن العنصر الذى نحن منه . عنصر أطلقنا عليه كما سلف Homo Neanderthalensis . وثبت أن أوربا كان يسكنها فى العصر القديم الذى أطلقنا عليه اسم Mousterian عنصر من الانسان النياندرتال .

وبرغم أن الانسان الذى وجدت آثاره كان فطريا أقرب فى حياته الى الحيوانية فانه كان رجلا أو إنسانا بكل ما فى جسمه من صفات وما فى عقله من خواص وتفكير . وما دمنا نرمى الى الوصول لفجر الانسانية ومعرفة تاريخ النشأة البشرية فانه يجب علينا أن نتخذ لنا طريقا آخر يساعدنا على تفهم ما نريد ومعرفة ما نرمى اليه . هذا الطريق هو البحث فى الأنهار والمجارى المائية . وإن البحث والتنقيب اللذين قام الناس بهما فيها ، دلا على أن هناك آثارا ومخلفات قديمة تحفظها الأنهار والمجارى فى قاعها وشواطئها ومدرجاتها ، وكأنها تقدر مجهود الانسان لحفظ كيانه ، فعملت على حفظ آثاره وتخليد ذكره تنويها منها بعظمته وقوته .. ولنا فى مدرجات نهر التيمس أكبر دليل على